على عتبات مدرسة الإمام الخطابي (٢/٢)

٦/٦/١٤٣٨هـ

أشرت في المقال السابق إلى جملة من الدروس المنهجية والتربوية المستفادة من مقدمة الخطابي لكتابه الغريب، وفي هذا المقال تتمة بقية الوقفات.

- **الاعتذار للسابق:**

حين يَظفر بعضُ الباحثين بشيءٍ فات مَن قبله ربما أخذتْه نشوةُ الفرح، وهذا القدْر مفهوم، لكن الذي لا يَجمُل بطالب العلم أن يَقلب هذه النشوة إلى فرصةٍ للتنقص ممن سبقه بقلة الاطلاع، ونحو ذلك، أما الإمام الخطابي فله مع هذا الشعور شأنٌ آخر، إذ يقول: «ولعل بعضَ ما نأثره منها -أي من مواد كتابه الغريب- لو بلغ أبا عبيد وصاحبَه لقالا به، وانتهيا إليه، وذلك الظن بهما يرحمهما الله، فأما سائر ما تكلّمنا عليه مما استدركناه بمبلغ أفهامنا، وأخذناه عن أمثالنا؛ فإنا أحقّاء بألا نزكيه، وألا نؤكد الثقة به».

قارن هذا الاعتذار الراقي بما سبقت الإشارة إليه في أول فقرات هذا المقال، ثـم انظر كيف وصف جمعه بهذا الوصف الذي نأى بنفسـه عن مدحه والثناء عليه -وهو جدير به- لكنه ترك ذلك للقراء والعلماء. نعم، قد يقع من بعض الأعلام ثناءٌ على كتابـه لغرضٍ معتبَر، لكن المؤكد أنه ليس شـأنًا مطردًا عند المصنّفين الكبار، بل عادتهم الإزراء على نفوسهم ومؤلفاتهم، ورحم الله امرأً عرف قدْر نفسه.

- **مراكمة الكتب:**

«وقـد بقي في هذا الباب كتبٌ غير ما ذكرنـاه، منها كتاب أبي عبيدة معمر بن المثنى...، ثم ذكر ثمانيـة كتب، ثم قال: إلا أن هذه الكتب على كثرة عددهـا إذا حُصِّلت كانت كالكتاب الواحد، وفي الكتابين -يعني: كتاب أبي عبيـدة وابن قتية- غنى ومندوحة عن كل كتابٍ ذكرناه قبل». يغرم بعضُ طلاب العلم بجمع الكتب على حسـاب العناية بالتحصيل والتأصيل، فيذهب عمرُه ومالُه وهو يجمـع دون أن يقرأ، أو يقرأ قراءةً أُفقية ورأسية، فيصبح مثقفًا في ذاك العلم لا مؤصّلًا، ولو أنه قرأ، وأتقن أصـولَ كُتَبِ كلِّ فنّ؛ لضبـط بقية الكتب، ولاختصر على نفسـه زمنًا وجهـدًا كبيرين في تتبّع المصنفات، ووجّه همّتـه لبقية العلوم التي يحتاج إلى ضبطها وإتقانها.

وكم يُحسِـن العالمُ وطالـبُ العلم المتقن لطـلاب العلم حين يذكر خلاصةَ تجربته مع كتب الفنّ التي طال تمرّسه معها؛ ليوفر على غيره عناءَ السير في طريقٍ غيره أولى به منه، كما فعل أبو سليمان الخطابي رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

- **طبعة مزيدة ومنقّحة:**

«وأمـــا كتابنا هذا فقد كان خرج لي بعضُه وأنا إذ ذاك ببخارى في ســـنة تســـع وخمسين وثلاث مئة، فطلب إليّ إخواننا بها أن أمكّنهم من انتساخه، وأَحبوا أن يتعجلوا فائدتَه من غير تعريج عليّ في إتمامه؛ فأفرجت لهم عنه، ولما يأتِ النظر بعدُ على استيفاء ملاحظته، ولم يقع الاحتشاد مني لتهذيبه... ولما تنفّس الوقت، ورزق الله التوفيقَ لما أحب أن يوفِّق منه، وتصفّحت ما في تلك النســـخة تبيّنت في أحرفٍ منها خللًا، فغيرتُ، وأصلحتُ، وزدتُ وحذفتُ، ورتبّتُ الكتابَ على الوجه الذي استقر الآن عليه».

هـــذا درسٌ آخر في أهمية المراجعة (للطبعـــة الأولى) للكتاب، فعمَلُ البـــشر لا يخلو من قصور، ومِن فضل الله على الإنســـان أن ينتشر كتابُه، ويُتلقـــى من القرّاء، فتظهـــر لبعضهم ملاحظاتٌ وتنبيهات يَســـتدركها الكاتـــبُ في الطبعة الثانية؛ ما يجعل للطبعـــة الثانية ميزة، ويحق أن يكتب على غلافها: «مزيدة ومنقّحة».

بعضُ المؤلفين قد ينتشر كتابُه، ويُطبع طبعات عدّة، ومع هذا فلا تكاد تجد فرقًا بين الأولى والخامســـة، على الرغم من تقادم الأولى، ولا شـــك أن هذا خلاف ما ينبغي؛ فالإنســـان الـــدؤوب في الطلب، لا ينفك عن نقد نفســـه قبْل الآخرين، ولا يزال يكتشف ضعفَه ونقصَه، وأن الحاجة للتســـديد والتقويم مستمرة، حتى يســـتوي الكتابُ على سوقه، ويحقّق مرادَه الذي صُنّفَ لأجله.

رحـــم الله الإمام أبا ســـليمان الخطابي، فكـــم أفاد، وأجـــاد في هذه الإشـــارات، التي تمثل منهجًـــا ينبغي أن يُحتذى، وهنيئًـــا لمن جمع الله له بين حب العلم، والدأب فيه، مع الخُلق الحســـن، والعبارة الرشيقة، التي يتحقّق بها النصح في أعلى صوَرِه الممكنة كما كان هذا الإمام.